الفصل الرابع

حرب بعد حرب

الخرطوم

خلال أسابيع من مغادرة آخر رتل للجنود السوفييت وعبورهم جسر أم دارية للصداقة، وتواريهم خارج أفغانستان، كان أسامة بن لادن يفكر هو الآخر إلى أين يتوجه؟[1] فمستقبل أفغانستان مازال مجهولاً، إلا أن ابن لادن كان ينظر إلى ما وراء جبال هندوكيش. فالحرب التي خلفها السوفييت وراءهم لم تنته بعد. ولم تخف حدتها بعد مغادرتهم. ولدرجة ما، قلّد ابن لادن السوفييت؛ إذ استمر في تقديم الدعم والعون للمجاهدين فيما كان السوفييت يواصلون الدعم والمساعدة لحكومة كابول لعدة سنوات بعد الانسحاب. إلا أنه ومع حلول منتصف عام 1989، كان ابن لادن ومعه مجموعة صغيرة من العرب في بيشاور يخططون لكيفية تطوير معركتهم للمرحلة التالية. ويدؤوا بتشكيل منظمة تقدم حلاً واقعياً للجدل الذي كان يدور مع عبدالله عزام – حول ما إذا كان ينبغي الاستمرار في الجهاد خارج أفغانستان أم البقاء فيها إلى أن يتم تحقيق النصر الكامل وتأسيس الجمهورية الإسلامية. وانتهوا إلى قرار يقضي بأخذ الجهاد إلى العالم الخارجي. وشرعوا في البحث عن قاعدة لبدء حملتهم الجهادية.

غادر ابن لادن بيشاور عائداً إلى وطنه عام 1989. وبعد أن اغتيل عزام في خريف ذلك العام، سيطر ابن لادن على مكتب الخدمات. وعلى مدار السنتين التاليتين، قام بعدة زيارات قصيرة إلى باكستان. إلا أن اهتمامه توجه إلى مكان آخر. فقد قام هو ومجموعة من قدامى المحاربين الذين شاركوا في

الحرب السوفيتية – الأفغانية ومعظمهم من مصر والعراق بتأسيس مجموعة صغيرة أطلق عليها اسم القاعدة، وكانوا منهمكين في تجنيد الآخرين للانضمام إلى المجموعة[2]. ووجد المصريون، الذين كانت أعدادهم تفوق أعداد المجموعات الأخرى، أنفسهم في حلف غريب وغير طبيعي مع ابن لادن التقي. فعلى العكس من معظم الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني، جاء المصريون إلى الحرب ولديهم إيديولوجية ناضجة، ولم تكن تلك الإيديولوجية هي نفسها التي غادروا بها، إلا أنه كان لديهم برنامج تم الاتفاق عليه على مدى عشرة أعوام ينادي بضرورة عودة كافة الدول الإسلامية إلى تحكيم الشريعة الإسلامية. مع العلم أن جوهر نصوص مذهب وفكر الحركة الإسلامية المعاصرة هو من وضع شخصين مصريين هما حسن البنا وسيد قطب، والأول هو مؤسس حركة الإخوان المسلمين والثاني هو الذي أشاع الفكرة وبنى قاعدتها الشعبية. واستمد الاثنان أفكارهما من التراث الإسلامي القديم وعملا على إعادة صياغته بقالب جديد يناسب العالم المعاصر. والنظرية الأساسية التي وضعاها هي الإصرار على الثورة العنيفة ضد الأنظمة التي لا تحكم بالإسلام في الشرق الأوسط وكانت العناصر المصرية في بيشاور من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الذين اشتركوا في عمليات ضد الحكومة المصرية والتي استخدم فيها الطرفان العنف بدرجات كبيرة. وكان مصريو بيشاور، ومن بينهم أيمن الظواهري، يرون أن أفغانستان ليست هدفاً بحد ذاتها، وإنما هي مشروع لنموذج تجريبي لإثبات ما إذا كان باستطاعة جيش إسلامي مؤلف من عوام الناس أن يدمّر عدوه الأكثر تفوقاً في السلاح والعتاد. وعندما خرج السوفييت، كانوا جاهزين للإعلان أن التجربة قد نجحت، وأخذ تلك العبر والدروس إلى الأمام.

ومع إعلان ابن لادن أميراً، أو قائداً، للمجموعة الجديدة، تم إرسال الرجال إلى مختلف الدول لمعاينة ما يصلح منها أن تكون قاعدة لانطلاق

العمليات. فأفغانستان بعد كل شيء دولة بدائية، قاحلة، ومحاطة جغرافياً بدول مجاورة، وليست مضيافة. كانوا بحاجة إلى مكان يمكنهم العمل فيه بأمان، وفيه بنية تحتية أفضل من تلك الموجودة في أفغانستان. وبعد عودته إلى السعودية عام 1989، جمع ابن لادن مباشرة قوة من الرجال وحاول زرعهم في اليمن الجنوبي في محاولة فاشلة لقلب الحكومة الموالية للسوفييت هناك[3]. اكتشف اليمنيون المؤامرة وأحبطوها، ووجهوا احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة السعودية التي كانت هي الأخرى غير راضية عن ابن لادن الذي ما انفك ينتقدها.

كانت السودان من بين المناطق التي أرسلت إليها القاعدة أشخاصاً لمعاينتها. وهي أكبر الدول الإفريقية مساحة. وتقع على ساحل البحر الأحمر قبالة المملكة العربية السعودية. ويمكنك رؤية تخومها من منزل ابن لادن في جدّة. ومن الجوانب الجذابة في السودان أن الحزب الحاكم فيها هو من الأحزاب القليلة في العالم التي تدعم قضايا الإسلاميين. وتعاني حكومتها من الفقر المدقع، وتستجدي المساعدات التي يمكن لمستثمر مثل ابن لادن أن يقدمها. ومع نهاية عام 1990، بدأ ابن لادن بشراء العقارات والأراضي في الخرطوم عاصمة السودان. وعلى مدى العامين التاليين، اشترى المزارع والمنازل وبنايات المكاتب، أي كل أنواع العقارات التي يمكن لذلك البلد أن يقدمه. وعندما طرد من المملكة العربية السعودية في العام الذي تلاه، كان لدى ابن لادن مكان يمكن أن يذهب إليه – الخرطوم. وأصبحت عمليات القاعدة التي أمر بتأسيسها هناك من الناحية الفعلية كما يوحي اسمها، أصبحت قاعدة لعملياته.

كانت السودان من الفقر بمكان بحيث استطاع ابن لادن، ودون بذل كثير عناء، أن يحقق احتكاراً على تجارة الدولة الأساسية. فقد أصبح يسيطر على تجارة اللبان، والذرة، وعباد الشمس، والسمسم، واستثمر مبلغ 50 مليون دولار

في إنشاء مصرف، وأسس أكبر شركة إنشاءات في البلد. وقام بتعبيد الطرق والمطارات والموانى والمزارع[4]. كما أسس الأعمال التي تتعامل بالقمح، وسكر النخيل، والملح، والصابون، والأثاث، وزيت النخيل، والفول السوداني، والفول، وأعمال الصرافة. وقام باستيراد معدات الإنشاءات الثقيلة، وشيّد معسكرات تدريب في المناطق الجبلية شمال الخرطوم. ثم أحضر قدامى المجاهدين من أفغانستان لإدارة تلك المعسكرات، وبحث عن الجهاديين الذين يواجهون صعوبات في بلادهم التي عادوا إليها. ومع حلول عام 1993، أحضر قرابة 480 من الأفغان العرب الذين طردتهم باكستان[5].

في واشنطن العاصمة، وأثناء المناقشات الدائرة في ذلك الوقت حول الإرهاب، ورد اسم ابن لادن عرضاً أثناء الحديث. فقد كانت أخطار الإرهاب الرئيسية آتية من الجماعات المدعومة من الدول، مثل حزب الله، المجموعة التي تدعمها إيران والتي قتلت 273 من جنود المارينز الأمريكيين في بيروت عام 1983، أو الإرهاب القادم من الدول مباشرة كما فعلت ليبيا تبفجيرها طائرة بان آم 103. وعندما جرى الحديث عن ابن لادن، كان ذلك في سياق الحديث عن الدعم المالي الذي يقدمه لأشخاص يمكن أن يشكلوا خطراً محتملاً. وكانت السلطات الأمريكية تعتقد أن ابن لادن موّل هجوماً على تجمع سكني للأمريكان في اليمن عام 1992. وأنه في واقع الأمر، موّل محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك[6]. ولم يكن معروفاً للاستخبارات الأمريكية أنه دخل مع المصريين في اتفاق نتج عنه تشكيل منظمة القاعدة.

وفي هذا الصدد يقول أحد الدبلوماسيين الأمريكيين العاملين في المنطقة: "في أعوام 1995، 96، 97، لم تظهر القاعدة على شاشات المراقبة بهذا الاسم "القاعدة". لقد كانت واحدة من عدّة منظمات كنا نعيرها اهتمامنا. وكان يُنظر إلى أسامة بن لادن على أنه مستثمر مموّل للإرهاب. أحْضِر له فكرة، وسوف

يعطيك بعض المال، وربما المساعدة التقنية لتنفيذها. لم نكن ننظر إليه على أنه مخطط. ومع بداية عام 1994، تكرر اسمه في الظهور ولكن في إطار التمويل"[7].

كان ابن لادن محل اهتمام متزايد بالنسبة للولايات المتحدة. وفي عام 1993، وعلى الرغم من عدم علم الأمريكان بذلك وقتها، أعلن ابن لادن الحرب ضد القوات الأمريكية التي كانت في الصومال في مهمة إنسانية. "إن الجيش الأمريكي قد وصل الآن إلى القرن الإفريقي. ويجب علينا أن نوقف رأس الأفعى ...يجب علينا أن نوقف ما يفعلوه في القرن الإفريقي"[8].

ومع حلول منتصف التسعينيات، بلغت التصريحات التي صدرت عن ابن لادن حداً جعل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA تبدأ بتعقب تحركاته وحساباته الشخصية[9]. كما مارست الحكومة الأمريكية ضغطاً على الحكومة السودانية لتحجيم وتقييد تحركاته، وعندما ثبت أن ذلك لم يجد معه نفعاً، فبطرده إلى دولة توفر له قليلاً من حرية الحركة. . وكانت المشكلة تكمن في العثور على مثل هذه الدولة. تم أخذ رأي السعوديين، إلا أنهم أبدوا عدم رغبتهم في التعامل مع ابن لادن لا من قريب ولا من بعيد[10]. وفي الحقيقة أبدت كل دولة تحدثت إليها السودان رفضها واعتذارها عن استقباله. وقال السودانيون بأن هذه الدول شملت أيضاً الولايات المتحدة نفسها. وقالوا بأنهم عرضوا على الأمريكان تسليم ابن لادن لهم شريطة عدم الكشف عن دورهم في ذلك. ونفت الولايات المتحدة تلقي مثل ذلك العرض[11]. ولم يكن هناك، وتحت أي ظرف، أي أساس قانوني لتسليمه لأنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك أي تهمة موجهة إلى ابن لادن بارتكاب أي جريمة ضد مواطنين أمريكيين.

وفي أواخر عام 1995، وقعت عملية تفجير في مكتب للحرس الوطني في الرياض العاصمة السعودية، وأسفر الحادث عن مقتل خمسة أمريكين واثنين

من الهنود. وكان ابن لادن مشتبهاً به في تمويل ذلك الهجوم. إلا أن السعوديين أعلنوا أنهم ألقوا القبض على الفاعلين وقاموا بقطع رؤوسهم على الفور قبل أن يصل المحققون الأمريكيون إلى البلاد للتحقيق معهم.

وفي فبراير/ شباط 1996، كانت حكومة كلينتون مستاءة من الحكومة السودانية بسبب دعمها لابن لادن تحديداً، فأغلقت السفارة الأمريكية في الخرطوم وتم استدعاء الموظفين إلى الولايات المتحدة. ويعد هذا الإجراء كارثة مالية على الدولة المضيفة لأنه يعكس عدم وجود ثقة بالسلطات المحلية في حماية الأجانب. وفي العادة تلحق الاستثمارات المالية الدبلوماسيين خارج الدولة. ثم قامت الأمم المتحدة بفرض عقوباتها الاقتصادية مستشهدة بدور الحكومة السودانية في محاولة اغتيال حسني مبارك. وفي الوقت ذاته كان السعوديون يحثون الحكومة السودانية بعمل شيء تجاه ابن لادن. وكان السعوديون أكثر تأثيراً في المنطقة – وأكثر استعداداً من الأمريكيين لمكافأة شركائهم. وأدركت السودان أخيراً أن عليها أن تتخلص من ابن لادن وأخبرته بذلك. ولم يكن أمام ابن لادن سوى الخروج. ومع أنه الآن قد أوجد منظمة لا تنتمي إلى دولة، إلا أن هذه المنظمة وهو شخصياً، يجب أن يتوطنوا في مكان ما. وبينما كان في السودان، بقي ابن لادن على اتصال مع أصدقائه القدامى في باكستان وداخل أفغانستان، ويأخذ منهم المشورة. وكان يقدم المال الكافي للإبقاء على نشاط مكتب الخدمات في بيشاور، وبقي على اتصال ببعض المجموعات التي تدير معسكرات التدريب خلف الحدود. وبعد أن أجرى بعض الاستيضاحات أخبروه بأنهم على استعداد للترحيب به إذا رغب في العودة.

جلال أباد

في الثامن عشر من مايو/ أيار، هبطت طائرة تابعة للخطوط الجوية الأفغانية إيريانا والمستأجرة من الحكومة السودانية، في مطار جلال أباد وهي

تقل ابن لادن وزوجاته الثلاث وأبنائه، إضافة إلى عدد من معاونيه ومساعديه. عاد ابن لادن إلى أفغانستان في الوقت الذي كانت فيه مجموعة جديدة تكمل إحكام سيطرتها على معظم البلاد. هذه المجموعة تعرف بحركة طالبان. وكانت طالبان جيشاً غامضاً ومجهولاً وقتها، ويتكون من طلبة المدارس الدينية، الذين يؤمنون بتفسير متشدد للقرآن الكريم. وبدؤوا بالظهور كقوة إيديولوجية مقاتلة في الحرب الأهلية طويلة الأمد. ووعد قائد المجموعة بتطهير البلاد، ليس فقط من ذنوبها، بل وحتى من ماضيها، مؤكداً أن الحاكمية لله. ولم يكن نجاح هذه الحركة في السيطرة على معظم البلاد يرجع إلى إيديولوجيتهم ولا بسبب قدراتهم ومهاراتهم القتالية بقدر ما كان بسبب قلة أعدائهم وتمتعهم باحترام بين الناس يفوق احترامهم لزعماء الفصائل الأخرى الذين استمروا في قتال بعضهم بعضاً، وفي خيانة بعضهم بعضاً، ومقاتلة الناس على مدار السنين. وباختصار وفرت طالبان أبسط الوعود المحتملة - أن يكونوا قوة شرطة فعالة، وقف القتال، والمحافظة على أمن الناس من بعضهم بعضاً. وعندما رجعت طالبان إلى كابول في الربيع التالي، تمكنوا من السيطرة على العاصمة دون قتال. ولقب زعيم الحركة الملا عمر، وهو شيخ أعور العين، لقب نفسه أمير المؤمنين. وأعيد تسمية أفغانستان إلى إمارة أفغانستان الإسلامية[12].

كانت المنطقة التي قدم إليها ابن لادن غير خاضعة بعد لسيطرة طالبان. وكان قادة قوات المجاهدين الذين كان يعرفهم منذ أيام الحرب مع السوفييت، ما زالوا يسيطرون على جلال أباد والمناطق المحيطة بها. إلا أن طالبان سرعان ما استولوا عليها بعد أن توسط ابن لادن في عقد هدنة بينهم. وبموجب الاتفاق تحصل طالبان مقابل عفوها عنهم بالحصول على المقاتلين المتمرسين وعلى الدعم المالي. واستأنفت معسكرات التدريب نشاطها بعودة ابن لادن وبانتصارات طالبان. لم يكن للعرب أي أثر كبير في المعارك التي جرت ضد السوفييت. إلا أنه في حرب الفصائل الجديدة أصبح رجال ابن لادن قوة مؤثر، ومصنعاً لإنتاج المحاربين في مغامرات عالمية.

وبينما كانت طالبان تعزز قبضتها على البلاد، أمضى ابن لادن الصيف في كتابة أول فتاواه الدينية. والفتوى في العادة تصدر عن علماء الدين في محاولة للتوفيق بين المبادئ القرآنية وبين المشاكل المعاصرة. لم يكن ابن لادن من علماء الدين بهذا المعنى - فقد كان تعليمه وخبرته في الهندسة المدنية - ولكن يبدو أنه كان مقتنعاً أنه يملك التعليم الديني، إن لم يكن التدريب الضروري، ليصبح مرجعاً وسلطة في التعبير عن رغبات الله.

هذه الفتوى التي (تجاوزت 11 ألف كلمة)، وكغيرها من الفتاوى التي تبعتها، كانت طنانة ومتعالية في فكرتها ولغتها. وكان عنوانها "إعلان الحرب على الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين". وحاولت إثبات أن استخدام القوات الأمريكية قواعد لها في شبه الجزيرة العربية يشكل عدواناً وانتهاكاً فظيعاً، وأنه يجب إخراجها بالقوة، وجاء في جزء منها [ترجمة عن الإنجليزية]:

> *فإنه لا يخفى عليكم أن أمة الإسلام عانت من العدوان والظلم والإجحاف على يد التحالف الصهيوني الصليبي وأعوانهم حتى أصبحت دماء المسلمين رخيصة، وثرواتهم نهباً في يد أعدائهم...وإن من أعظم وآخر هذه الاعتداءات التي شهدها المسلمون منذ وفاة النبي ﷺ هي احتلال جيوش الصليبيين الأمريكان وحلفائهم أرض الحرمين الشريفين - مهد الإسلام، ومهبط الوحي ومصدر الرسالة ومكان الكعبة المشرفة قبلة المسلمين*[13].

استدل ابن لادن بعدد من حالات الظلم التي تعرض لها المسلمون على يد الأمريكان وغيرهم من بني ملتهم. وجعل من الواضح أن المسلمين يملكون الحق وبالأحرى - مأمورون - باستخدام كل الوسائل المتاحة لهم لطرد الصليبيين. وهو ما يطلق عليه الظواهري - أقرب حلفائه - "الفريضة الغائبة" وقامت

الصحافة العربية التي ساعدت في بناء أسطورة ابن لادن كأمير مقاتل في الحرب السوفيتية، بنشر توجهاته الجديدة بكل شغف. وبدأت أشرطة الفيديو والصوت لخطابات ابن لادن تنتشر في العالم الإسلامي. كما هو شأن عدد آخر من العلماء. وساهمت هذه الوسائط الجديدة للإعلام في نشر سمعة ابن لادن دون أن تجلب كثير اهتمام في العالم الخارجي.

وفي يونيو/ حزيران اللاحق، انفجر صهريج وقود أمام معسكر لقوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) في الظهران في المملكة العربية السعودية موديا بحياة تسعة عشر شخصاً. وكما في الحالات السابقة، لم توفر السعودية أية فرصة للمشاركة في التحقيقات؛ ووجهوا اللائمة على فرع حزب الله في السعودية. وألقوا القبض على عدد من المشتبه بهم وأعدموهم فوراً، دون إعطاء أي فرصة للولايات المتحدة للتحقيق معهم واستجوابهم. لم يعلن ابن لادن مسؤوليته عن الهجوم - إلا أنه وبكل وضوح امتدح الذين قاموا به. وأصبح من الواضح للجميع أخيراً أن نقل ابن لادن من مكان لآخر لم يجد نفعاً في حل المشاكل التي يحدثها.

الدوحة

بعد إلقاء القبض عليه، لم يقدم رمزي يوسف أية معلومات ذات أهمية للمحققين. وفي الحقيقة أنه لم يتم التحقيق معه بالصورة التي نعرفها الآن. بل تم عقد مقابلة معه. فقد كان سعيداً بالاعتراف بأغلب العمليات التي قام بها. بل وحتى تفاخر ببعضها. ومن جانب آخر شكا من الصعوبات التي كان يواجهها في عمله. وصعوبة وضع هذه الخطط، وتأمين المال اللازم لتنفيذها، والعمل مع الحمقى. (فمثلاً، عندما سئل لماذا ارتكب محمد سلامة الخطأ القاتل بمحاولة الحصول على المبلغ الذي وضع تأميناً على حافلة رايدر التي استؤجرت لحمل القنبلة، فكان جوابه كلمة واحدة: "غبيّ". وما لم يفعله يوسف

هو أنه لم يطلب من أي شخص أن يفعل ما لم يستطع أن يفعله أو يفكر به بنفسه . لم يسمّ أشخاصاً بأعينهم، ولكنه ترك دلائل، وحاسوبه المحمول، وقوائم أرقام الهواتف التي استخدمها.

من الأسماء التي ظهرت في هاتفه: زاهد شيخ محمد، شقيق خالد في بيشاور. وبعد اكتشاف الأمريكان هذا الاسم بقليل، قامت قوات الأمن الباكستانية باقتحام مكاتب زاهد وغيرها من الجمعيات الخيرية العربية في المدينة، إلا أن زاهداً كان قد غادر المكان قبل وصولهم. وتمت المداهمة وسط أجواء ملاحقة العرب في باكستان على يد حكومة بوتو، وأضافت إلى الاضطراب في صفوف الأفغان العرب المقيمين في البلد. ولحق كثير من العرب زاهد شيخ في مغادرة باكستان.

بقي خالد شيخ محمد حذراً جداً في أول عملية إرهابية فعلية له والتي نفذها في مانيلا. فقد استخدم ثلاثة أسماء مزورة، وكان دائماً يلبس القفازات داخل مكان صنع القنبلة في الغرفة 603، وسكن وحده بعيداً. ولم يكن حتى مراد، وهو أحد المتآمرين في العملية، يعرف شخصيته الحقيقية. وكان هناك سبب وجيه جعل من يوسف يخاطر بإرسال مراد لإحضار حاسوبه المحمول: يوسف سمّى بعض الأسماء، أو على الأقل تركها خلفه. ومن بين الملفات التي وجدت في حاسوبه، رسالة موجهة إلى أحد الأشخاص يوبخه فيها على التقصير في تقديم الدعم المطلوب:

إلى الأخ محمد الصدّيقي:

إننا نواجه كماً كبيراً من الصعوبات بسببك. اتق الله يا سيد صديقي، هناك يوم للحساب. وسوف تسأل عما إذا كنت مشغولاً بشيء أهم. لا تعط وعوداً للآخرين. إلى اللقاء يوم القيامة. مازلت في الانتظار.

خالد شيخ، وبوجينكا[14]

ويقول نيل هيرمان، الذي قاد فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي في مؤامرة مانيلا: "كنا نعلم أن هناك شخصاً آخر متورط في العملية... إلا أن هذا الشخص كان غامضاً جداً ولم نكن نعرف من هو"، ويضيف قائلاً: "لقد نجح بالفعل في مراوغتنا"[15].

استطاع المحققون أخيراً الربط بين خالد شيخ هذا وزاهد شيخ الذي يعمل في الجمعية الخيرية. وبدؤوا بجمع الأدلة ضدّه. وكان ما يزال يشكل لغزاً، إلا أن المحققين استطاعوا الحصول على بعض الخيوط التي تقود إلى أثره. فقد استمر في الإقامة في الدوحة، عاصمة قطر، الدولة الصغيرة الواقعة على نتوء اليابسة في الخليج الفارسي شرقي الرياض. لم تكن قطر معروفة في الغرب. ولكن – وعقب الانقلاب الذي قام به ابن الأمير الذي درس وتعلم في الغرب، على أبيه – أصبحت قطر أكثر مشيخات الخليج تحرراً. ولهذا السبب أصبحت تشكل مصدر إزعاج لجيرانها الذين لا يوجد لديهم رغبة في التحرر. وكانت تلك الفترة هي التي انتقل فيها خالد شيخ إلى قطر. وكان الأمير الجديد على وشك افتتاح قناة الجزيرة الفضائية. وهي المحطة الفضائية الرائدة في تقديم طراز جديد من الصحافة المفتوحة على النمط الغربي في المنطقة. وكانت الدوحة مكاناً غريباً، مليئاً ببنايات المكاتب وغيرها. وفيها مركز قديم متصدع للمدينة فيه محلات تجارية مملوءة بالبضائع الكهربائية الصينية واليابانية. وكما هي الحال في بقية أرجاء الخليج، فإن أعداداً كبيرة من العاملين في هذه المتاجر هم باكستانيون من بني جلدة خالد شيخ محمد. وكان خالد يستفيد من وجود شبكة واسعة من معارف وأصدقاء أخيه عابد شيخ محمد الذي توفي في أفغانستان. وكان عابد قد التحق بالجامعة في الدوحة عام 1980 وأصبح معلماً يحظى بالاحترام في المدينة. واستطاع أن يحوّل الأندية الاجتماعية ذات السمعة السيئة لتصبح من معالم حياة الدوحة الاجتماعية والدينية[16]. ولكثير من الناس ذكريات عزيزة مع

عابد الذي يعتبر أيضاً شهيداً في الحرب الأفغانية. وكانت ذكراه ما تزال قوية في النفوس عندما جاء خالد شيخ محمد إلى الدوحة عام 1993. ويبدو أن خالد شيخ لم يكن متعباً بوظيفته اليومية في وزارة الطاقة والمياه. إذ كان يمضي كثيراً من الوقت في السفر حول الخليج في أثناء إقامته في الدوحة لبناء وتطوير شبكة لجمع التبرعات.

ويصف أحد المسؤولين الأمريكان الذين عملوا في الخليج في التسعينيات أساليب وطرق جمع التبرعات في المنطقة قائلاً: "تنتشر في المنطقة طريقة تقليدية لجمع التبرعات، يجلس الشخص في المسجد ليعاين المشهد، ثم يقوم بالتحدث إلى الهدف، وهذا الهدف يكون في العادة رجلاً متقدماً في السن، ولديه مال كثير، ويكون متديناً في العادة. يأتي جامع التبرعات إلى جانبه، وبأسلوب من الإقناع والإلحاح، يقوم الهدف بكتابة شيك له"[17]. "وكان خالد شيخ محمد جامعاً بارعاً للتبرعات. وهو من النوع الذي يقدر على جمع الأموال من جامعي الأموال. وكان كثير التنقل من وإلى قطر، والإمارات العربية المتحدة والبحرين. وكانت شبكة الأموال غير رسمية. فمثلاً قد يتصل شخص من الفلبين بشخص من دبي، وهذا الأخير يتصل بخالد شيخ محمد. وبعد هذه الاتصالات المتتابعة عبر الهاتف، يقوم خالد أخيراً بتحويل الأموال... وكانت هناك كميات كبيرة من المال في عدد قليل من التحويلات الخاصة بعدة مئات من الناس. وتوسط خالد شيخ محمد هذه الشبكة. لقد كان محركاً للأموال - ولم يكن من الواضح ما إذا كان متصلاً بأشخاص أعلى منه مرتبة، هذا إذا كانت هناك طبقة أعلى منه... كان يظهر فجأة في دبي وباكستان وأحياناً في الكويت. وأصبح يشكل قضية بالنسبة لي لأنه كان في منطقتي. وجل ما نعرفه حتى الآن أنهم كانوا مجموعة من الأفراد يعملون معاً".

ويتذكر خالد محمود، وهو من سكان الدوحة أنه التقى خالد شيخ محمد ذات مرة في مسجد المدينة. وتحادث الاثنان قرابة نصف الساعة، وخلالها

تمت مقاطعتهما عدة مرات من قبل الأشخاص الذين جاؤوا ليلقوا السلام على محمد الشاب، قصير القامة، ممتلئ الجسم، والذي بدأت تظهر عليه علامات الصلع. وينطبق عليه وصف الشخص الشبكي الفعال المتفاني، بحسب دليل إرشادات العمل الاجتماعي الأمريكي في ذلك الوقت. ويقال بأن لديه إحساساً قوياً بالفكاهة والمرح، وصاحب ذاكرة حادّة. "بإمكانه أن يتذكر اسمك بعد المرة الأولى التي يلقاك فيها. ويتذكر عنك أشياء حدثت في المرة التي قابلك فيها". كما يقول محمود[18].

بقي الفهم الأمريكي للإرهاب الإسلامي الجديد قاصراً وغير مكتمل. وكان الانتباه والموارد مرصودة لجهود مكافحة الإرهاب المحتمل المدعوم من الدول. وخصوصاً إيران التي أصبحت الداعم الرئيس للإسلام الأصولي. واستطاع عملاء الاستخبارات الأمريكية أن يتعقبوا آثار خالد شيخ محمد حول المنطقة، وبالفعل حول العالم: إيطاليا، مصر، سنغافورة، البرازيل، الأردن، تايلاند، الفلبين. وفي الواقع أنه كان يعيش في الخليج أمام الملأ. ويقول أحد المسؤولين الأمريكيين الذين عملوا في المنطقة وقتها: "لم يكن يستخدم اسماً مستعاراً"[19]. وكان في العادة يحل ضيفاً في مزرعة عبدالله بن خالد آل ثاني، الذي كان وقتها وزيراً للشؤون الإسلامية في الدولة، والذي ألح على خالد شيخ للانتقال إلى الدوحة.

"يملك عبدالله بن خالد مزرعة خارج الدوحة" كما يذكر المسؤول الأمريكي[20]. وكثير من هؤلاء الرجال يملكون مزارع. لقد كانت هواية بالنسبة لهم. يزرعون الملفوف ويربون البط. إذن كان له هذه المزرعة، وكان محاطاً دائماً بعدد كبير من الأشخاص. وكان في المنزل أعداد زائدة من العاملين وكثير من العرب والأفغان العاطلين عن العمل. وكان خالد يصلح دائماً لتقديم العون. ويمكث هؤلاء الأشخاص لفترة طويلة نسبياً . بعضهم جاء إلى هنا وقد اعتراه

النحول ولكن وبعد قضاء بعض الوقت تبدأ علامات الامتلاء بالظهور عليهم. يمكن أن تذهب إلى المنزل، فتجد دائماً هؤلاء الأشخاص هناك وقد تجد بعض بنادق الكلاشينكوف في الزاوية. ولا يبدو هذا الأمر غير طبيعي. لقد عملت في بيروت قبلها. لذلك، فإن مشاهدة السلاح معروضاً في غرفة الجلوس ليس بالأمر المستغرب. وكثير من هؤلاء الأشخاص ربما كانوا من المجاهدين المخلصين يمضون فترة نقاهة. وهي نقلة ليست سيئة بالنسبة لهم".

استطاعت الاستخبارات الأمريكية أخيراً أن تكشف أن أحد الأشخاص في المزرعة هو خالد شيخ نفسه الذي كانوا يلاحقونه منذ أحداث مانيلا. ولكنهم لم يكونوا على علم بمدى أهمية الدور الذي لعبه. فقد كانوا يعتقدون أن يوسف هو العقل المدبر لخطة مانيلا، وأن خاله الأكبر لم يكن أكثر من تأثير سيّئ عليه"[21] ومع ذلك، أصدرت هيئة محلفين كبرى مذكرة إدانة سرّية ضد خالد شيخ محمد عقب يوم رأس السنة الميلادية 1996. وثار الجدل بعدها حول ما يمكن عمله بشأنها. تحدث مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي لويس فريه إلى المسؤولين القطريين طالباً مساعدتهم في القبض على خالد شيخ وتسليمه إلى الولايات المتحدة. وكان إجراء الجلب القسري أداة جديدة آنذاك. فالإجراء كان يعتبر تسليماً مخالفاً للقانون، ويعتبر من الناحية الفعلية كتسليم الشخص المطلوب إلى الدولة التي طلبته دون استكمال الإجراءات القانونية في الدولة المضيفة. وقال مسؤول مكتب التحقيقات الفيدرالي أن أشهراً مرت دون أن توافق السلطات القطرية على اعتقاله وتسليمه، أو أن تسمح للولايات المتحدة أن تأتي وتعتقل خالد شيخ بنفسها، على الرغم من اعتراف قطر بوجوده في أراضيها. وأخبرت قطر الولايات المتحدة بأن هناك أدلة تشير أن خالد شيخ محمد كان يبني قنبلة[22]. وقالوا أيضاً بأن في حوزته أكثر من عشرين جواز سفر مختلف، ومع ذلك قاموا بتأخير الموافقة على التسفير. وتمت الدعوة إلى اجتماع مطلع 1996، وترأس

الاجتماع نائب مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر ممثلاً عن البيت الأبيض والذي كان يحاول تأمين اتفاق في الرأي على تعقب خالد شيخ وإحضاره إلى الولايات المتحدة[23].

كانت تصورات الفريق الذي أيد الجلب القسري تقضي باستخدام فريق مكون من خمس وعشرين شخصاً في مهمة سرية. وكان هذا العدد خارج نطاق تقديرات البنتاغون. ويقول جمي غورليك ممثل وزارة العدل في الاجتماع: "لقد كنا بعيدين في تقديراتنا لدرجة بعيدة"[24] وأصر البنتاغون الذي كان يخشى نكسة أخرى كتلك التي أسقطت فيها طائرة هيلوكبتر من نوع بلاك هوك في الصومال عام 1993، على أن الحملة سوف تتطلب مئات وربما الآلاف من الجنود. وهذا الخوف أدى إلى اتخاذ البنتاغون مواقف مترددة في أوضاع مشابهة. وكان الجنرالات في العادة يقولون إذا توجب عليهم القيام بهذه العملية فإنهم يفضلون القيام بها بقوة كاسحة. وفي الواقع، فقد اقترحوا احتلالاً لقطر على مستوى صغير وهم يعلمون أن فرص الموافقة على هذا الاقتراح تكاد أن تكون معدومة، وكان ذلك أسلوباً آخر لقول: "لا" دون الحاجة للتفوه بالكلمة. كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA هي الأخرى مترددة. وربما لأسباب أخرى غير ظاهرة. ففي منتصف التسعينيات، كانت الوكالة تعاني من نقص في الإمكانيات ونقص في الإرادة للقيام بعملية من هذا القبيل دون دعم الجيش. ويذكر أحد الأشخاص الذين حضروا الاجتماع قائلاً: "رفض كل واحد حول الطاولة، ولأسباب خاصة بكل واحد منهم، ملاحقة شخص كان يهدد المصالح الأمريكية"،[25] ويتابع المسؤول قوله: "ولا يستطيع مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يذهب إلى مكان خارج الولايات المتحدة دون أن يحصل على المعلومات الاستخبارية اللازمة من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، والإمدادات من ووزارة الدفاع، والعضلات من الجيش فيما لو

اضطررنا إلى استخدام القوة للذهاب إلى الهدف. ولم يحدث أي من ذلك".

وفي ظل انعدام الدعم من البنتاغون ودولة قطر، كان هناك القليل الذي يمكن أن يقنع بيرغر بتعقب خالد شيخ محمد. لم يكن الأمر مجرد مسألة رغبة، بل كانت مسألة واقعية حول ما يمكن فعله. ودون الدعم العسكري فإن الجواب لا شيء.

وفي النهاية، وبدلاً من إرسال مجموعة لاختطاف خالد شيخ، أرسل مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي فريه رسالة إلى وزير الخارجية القطري جاء في جزء منها: "إننا نعتقد يا معالي الوزير. أن المسألة اضطرارية. لقد وصلتني للتو معلومات مقلقة تفيد بأن خالد شيخ محمد قد أفلت مرة أخرى من رقابة أجهزتكم الأمنية، وأنه على دراية باهتمام مكتب التحقيقات الفيدرالي بمتابعته. هذه المعلومات إلى جانب حيازته جوازات سفر مزورة تثير قلقنا باحتمال هروبه من البلاد، أو أنه في طريقه إلى الهروب من قطر إلى مكان آمن. إن الفشل في اعتقال خالد شيخ محمد سوف يمكنه ويمكن رفاقه من الاستمرار بشن عمليات إرهابية"[26].

لم تحدث الرسالة أي مفعول يذكر. وفي النهاية، وعندما قرر الأمريكان إرسال فريق صغير من عملاء الاستخبارات لمحاولة اعتقال خالد شيخ محمد، كانت تلك الخطوة صغيرة جداً ومتأخرة جداً. فقد اختفى خالد شيخ محمد. وكما يقول بعض الأشخاص: "ربما كان هناك بعض العملاء الحمقى التابعين لمكتب التحقيقات الفيدرالي في الدوحة، يتجولون ومعهم "الكلبشات" وبعض البطاقات المجلتة لإعلان حقوق الميراندا"[27].

ترددت قصص مختلفة حول الجهة التي ساعدت خالد شيخ محمد في الهروب من قطر - وغالبيتها تشير إلى آل ثاني، مضيفه. إحدى القصص تقول بأنه هرب إلى براغ في جمهورية التشيك، التي كانت مركزاً مزدهراً لتجارة

السلاح والمعلومات من الجمهوريات السوفييتية السابقة[28]. وفي جميع الأحوال، فإن قضية أين ذهب خالد شيخ مباشرة هي أقل أهمية من قضية أين ذهب بعدها – أفغانستان. فهناك جدد معرفته بشخص آخر عائد إلى هناك: أسامة بن لادن. وفي وقت ما عام 1996، قال خالد شيخ لأسامة بأن لديه فكرة. وأنها تتعلق ببنايات ضخمة وطائرات. وكانت الفكرة خليطاً من خطط إرهابية سابقة: محاولة يوسف تفجير برج التجارة العالمي؛ خطة مانيلا في تفجير عدة طائرات تجارية في وقت واحد؛ وفكرة مراد في اختطاف طائرة واستخدام الطائرة نفسها كسلاح عن طريق الارتطام بها في مركز قيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في فيرجينيا.

كان مراد رجلاً بسيطاً. فالتقرير الفلبيني حول اقتراحه اختطاف الطائرات يعكس بساطة الفكرة: "الموضوع الذي كان في ذهنه هو أن يستقل طائرة تجارية متظاهراً بأنه مسافر عادي، ثم يقوم باختطاف الطائرة ويسيطر على قمرة القيادة والغوص بها في مبنى مركز قيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA ولا توجد حاجة لاستخدام أي قنابل أو متفجرات في العملية. فهي ببساطة مهمة انتحارية كان لديه استعداد شخصي للقيام بتنفيذها. وكل ما يلزم لتنفيذ المهمة هو ركوب الطائرة كمسافر عادي، ومسدس يستخدمه لتنفيذ الاختطاف"[29].

خالد شيخ، في المقابل، كان أكثر تعقيداً، أو على الأقل كان رجلاً يستمتع بفكرة التعقيد. ذكر أولاً فكرة مراد لابن لادن، وقال ابن لادن بأن الفكرة بسيطة جداً، وتساءل: "لماذا تستخدم فأساً إذا كان بإمكانك استخدام الجرافة؟". ثم اقترح خالد شيخ خطة غريبة لاختطاف عشر طائرات مرة واحدة، خمس في شرق الولايات المتحدة وخمس في غربها. فقد كان هو ويوسف يحلمان بشيء من هذا القبيل. وتصفح كلاهما دليلاً لناطحات

السحاب الأمريكية بحثاً عن أهداف، ووضعا في حسبانهما من بين الأهداف برج سيرز في شيكاغو وبرج الحرية في لوس إنجيلوس[30]. وعدا عن القيمة الرمزية لضرب البنايات الكبيرة التي تشكل أعمدة القوة الاقتصادية الأمريكية، تتمتع ناطحات السحاب بميزة أخرى بسيطة، ولكنها مفيدة كأهداف، وهي سهولة تحديدها، فقد شيدت هذه الناطحات أصلاً لتجذب انتباه الناس إليها.

كان ابن لادن ورفاقه قد انتهوا من وضع المنطق الديني لمهاجمة الأمريكان قبل ذلك بسنوات عدة. وكان ممدوح سالم، وهو عراقي الجنسية، من أوائل أعضاء مجلس شورى ابن لادن، أو مجلس الحكم، وتقلد عدة وظائف داخل المنظمة قبل إلقاء القبض عليه عام 1998، وعمل مديراً تنفيذياً مؤتمناً للأعمال، ومسؤولاً، على سبيل المثال، عن جهود القاعدة في التسعينيات لشراء المواد اللازمة لصنع قنبلة نووية. كما عمل أيضاً مستشاراً دينياً لابن لادن. وكان ابن لادن في السابق يعتمد على الآخرين لتقرير ما هو مناسب إسلامياً وما هو غير مناسب. وكان سالم يصدر الفتاوى تباعاً داخل المنظمة. وإحدى هذه الفتاوى تتعلق بجواز ضرب الأهداف المدنية: "وعلل سالم ذلك بقوله إذا كان ضرب بناية أمريكية وقتل الأمريكيين فيها، وكان في ذلك العمل منفعة، فإذا قتل مسلمون يعملون مع الأمريكان نتيجة لذلك، فإن هذا عقاب للمسلمين الذين يساعدون الأمريكان الكفار. وإذا قتل مسلمون من غير العاملين، فإنهم شهداء وسيذهبون إلى الجنة، وسيكونون ممتنين للذين قاموا بالتفجير"[31].

هناك عدد كبير من أعضاء خلايا القاعدة المنتشرة حول العالم ممن انخرطوا في السنوات الماضية في نشاطات إجرامية استخدموها في تمويل خططهم الإرهابية. وكانت بعض خطط خالد شيخ تعاني من نقص التمويل. أما هذه العملية فهي في وضع مختلف: فقد كانت أكبر حجماً، وأكثر طموحاً،

وأعلى تكلفة، وأشدّ إحكاماً وسيطرة. وتتطلب نوعية مختلفة من الرجال أيضاً. ممن هم أكثر تحضراً وأقدر تقيناً. ومع وجود يوسف في السجن، كان محمد يفتقر إلى صانع القنابل. إلا أن صدم الطائرات في البنايات سيغني عن الحاجة إلى القنابل: فالطائرات نفسها ستتحوّل إلى قنابل. وكل ما يحتاجه بدلاً من ذلك، هو الطيارين. وطلب من ابن لادن شيئين: المال والاستشهاديين. ابن لادن لديه المال، ومعسكرات التدريب في أفغانستان التي يسيطر عليها ستكون أفضل مكان للبحث عن العنصر الآخر"[32].

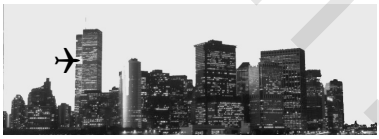

obeikan.com